السياسي لافكار عصر التنوير وتطبيقاته في امور الدولة والمجتمع، فبطرس البستاني، مثلا، يفكر في التطور السياسي لبلدان الشرق على النحو التالي: «ان الشرق الذي كان مزدهرا في غابر الازمان قد آل الى الانحطاط، وسبب الانحطاط هو الحكومات الفاسدة. ولاصلاح الحال لا بد من حكومات صالحة ترتكز، قبل كل شيء، على مراعاة مبدأ العدالة وعلى فصل السلطة السياسية عن السلطة الدينية، وفصل السلطة القضائية والتشريعية عن السلطة التنفيذية وعلى تكليف ضريبي سليم وتنفيذ الاشغال العامة وادخال التعليم الالزامي مع توحيد ورص صفوف السكان الذين تفتتهم الخصومة الدينية، وعلى اساس المشاعر الوطنية. هذا الى جانب ان شعوب الشرق لا تستطيع المضي في طريق الرقي السريع الا باستعارة الثقافة الاوروبية التي يكمن اساسها في المعارف والعمل»[١٠].

واهتم الجيل الثاني منهم، والذي تشكل من اغلبه من المسيحيين الشوام (يعقوب صروف، فارس عزء شبلي شميلي وآل حداد...) بالدعوة الى الفكر العقلاني والمادي والنظريات العلمية الحديثة وبخاصة نظريات التطور، بينما تراجعت اهمية الافكار السياسية الاستقلالية والتحررية.

عموما، فانه لم تكد الحرب العالمية الاولى تنتهي حتى تشكلت، في عدد من البلدان العربية، هيئات واحزاب سياسية تعتمد الفكر الاصلاحي التحديثي منهجا لها، وتتصدى لادارة شؤون الحياة السياسية والاجتماعية في بلادها (الوفد والاحرار الدستوريين في مصر، حزب الشعب والحزب الوطني في سوريا، حزب الامة والحزب الوطني وحزب التقدم في العراق...). وقد استطاعت هذه الهيئات ان تكتسب شعبية لابأس بها في بلادها وبخاصة في مصر وسوريا، وهي الشعبية التي تراجعت بعد ذلك حتى تحول نفوذها الى مجرد نفوذ هامشي او انتهى على الاطلاق.

وبطبيعة الحال، فان هذا التراجع الشديد في نفوذ الاحزاب والهيئات الاصلاحية يرجع الى عوامل كثيرة داخلية وخارجية، الا ان مايهمنا هو ابراز الدور الذي لعبته المواجهة العربية ــ الصهيونية في هذا الصدد.

بداية، لقد تلقت هذه النظم ضربة قاصمة بضياع فلسطين في ظل فترة سيادتها، ثم جاءت النكبة لتنهي كل نفوذ او شعبية للنظم التي عاصرتها، وبخاصة تلك التي شاركت في المواجهة العربية ــ الصهيونية الاولى. ذلك انها فضحت حدود فعالية تلك النظم وامكاناتها وحجم الفساد الذي تعاني منه. وليس مصادفة، على سبيل المثال، ان يتهم كل من نظامي الحكم في مصر وسوريا، عقب النكبة، باتهامات متشابهة تدور حول الفساد والتجارة بالجيش. فقد اشارت اصابع الاتهام، في قضية الاسلحة الفاسدة، في مصر الى مجموعة من رؤوس النظام، كما اعتبر الضباط السوريون ان الساسة مسؤولون عن ارواح الشهداء، ولاكت الالسن سمعة المسؤولين في النظام واتهمتهم بالتآمر على فلسطين وبيعها. وبخاصة بعد ما اشيع من انباء عن وجود سرقات في القوات المسلحة وما شابه من فضائح.

بعبارة واحدة يمكن القول ان المواجهة العربية ــ الصهيونية، والنكبة في هذا الاطار، تعد من اهم العوامل التي انهت عهد الاصلاحية التحديثية في العالم العربي.

وهذا الامر، في حد ذاته، القى بدوره بتبعات عديدة على مجمل التطور الاجتماعي